ظاهرة الرّوم والإشمام
بين النحاة والقرّاء
ـ دراسة صوتية ـ

سامية بوزياد
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة منتوري ـ قسنطينة ـ

إنّ اللغة العربية لغة وقفية، فالعرب لا تبدأ كلامها بساكن ولا تقف إلاّ على ساكن، ولا بُدَّ لأوّل الكلام من همزة وصل تصِلُ النُّطق بِمُتَحرِّك يوافق طبيعة الصوت، لذَا وجدْنا النحاة يضعون بابًا لهمزة الوصل، فيذكرون مواضعها، ويُعدِّدون الأسماء التي تدخلها ضرورة، ثم إنَّ العرب لا تقف على متحرِّك إلاَّ وصلاً، بل على ساكن وجوبًا حتميًا فحين يقفُ المتكلِّم ينقطع الصّوت ونضع علامة على ذلك وهي السكون وهذا هو الأصل في الوقف.

وباب الوقف بحث مشترك بين علم النحو وعلم القراءات، وهو ظاهرة صوتية تحملُ دلالاتٍ سياقية تُؤصِّل للحرف المتحرّك معانيَ تركيبية، ولنا في الوقف على هذا المتحرِّك عِدَّة أوجه أوَّلها: الوقف بالسكون وثانيها: الوقف بالرّوم وثالثهما: الوقف بالإشمام، وهذا هو مَنَاطُ بحثنا والذي رصدْنا له بعض ما قيل في علم القراءة وعلم النحو والأصوات والمعجم.

أولاً: تعريف الرّوم والإشمام(*).

١ – لغة: يقول ابن منظور " الشمُّ: حِسُّ، الأنف، شمِمْتُه، أشمُّه ... وقال أبو حنيفة: تشمَّمَ الشيء واشتمَّه أدناه منَ أنفه ليَجْتَذِبَ رائحته ... يقال: شامَمْتُ فلانًا إذا قاربته وتَحَرَّفْتَ ما عنده بالاختيار والكشف ... والإشمام: رَوْمُ الحرف الساكن بحركة خفية لا يُعتدّ بها ولا تكسر وَزْنًا "(١). ثمّ يعرِّف الروم بقوله " رَام الشيء يرُومه روْمًا ومَرَامًا: طلبه، ومنه روم الحركة في الوقف على المرفوع والمجرور ... "(٢).

(*) وأقصد بالإشمام هنا، إشمام الحركات لا إشمام الحروف مثل إشمام صوت الصاد صوت الزاي في قوله تعالى: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦).

(١) ابن منظور: لسان العرب، تح، عبد الله علي الكبير، محمد حسب الله وآخرون، (مادة شمم) دار المعارف، ج٤، ص: ٢٣٣٣.

(٢) المصدر نفسه، مادة (روم)، ج، ٠٣، ص: ١٧٨٢.

٢ – اصطلاحًا:

أ– عند اللغويين والنحاة:

* يقول الجوهري: " رَومُ الحركة الذي ذكره سيبويه حركة مختلسة مختفاةٌ لضرب من التخفيف وهي أكثر من الإشمام لأنّها تُسْمَع، وهي بزنة الحركة، وإن كانت مختلسة ... "(١).

* ويقول في تعريف الإشمام " وإشمام الحرف: أنّ تُشِمَّه الضمَّة أو الكسرة وهو أقلّ من روم الحركة لأنّه لا يُسمع وإنّما يتبيّن بحركة الشفة ولا يُعتَدُّ بها حركة لضعفها والحرف الذي فيه الإشمام ساكن أو كالساكن "(٢).

* يقول أبو حيان في تعريف الرّوم " ... وهو الإتيان بالحركة ضعيفة وإشعاراً بما كان لها في الأصل ويدركه الأعمى والبصير "(٣).

* أما الإشمام فهو " ... الإشارة بضم الشفتين إلى الحركة المحذوفة من غير صوت ويدْركه البصير لا الأعمى وهو المختصّ بالمضموم سواءٌ كانت ضمّة بناء أم غيرها "(٤).

* ذكر ابن هشام في أوضح المسالك خمسة أوجه للوقف على المحرّك من بينها الوقف بالرّوم والإشمام فعرَّف الرّوم بقوله: "إخفاء الصوت بالحركة، ويجوز في الحركات كلها"، وأما الإشمام فهو: "الإشارة بالشفتين إلى الحركة بعيد الإسكان من غير تصويت فإنّما يدركه البصير دون الأعمى"(٥).

(١) الجوهري: الصحاح، مادة (روم)، تحقيق: أحمد عبد الغفار عطّار، ط٣، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، دار العلم للملايين، بيروت، ج٥، ص: ١٩٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص: ١٩٦٢.

(٣) أبو حيان: ارتشاف الضرب من لسان العرب، تح، مصطفى أحمد النماس – ط١– ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، مصر، ج٢، ص: ٨٠٨.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص: ٨٠٨.

(٥) ابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ج٤، ص: ٣٤٥.

* يعرِّف السيوطي الرّوم بقوله " ... وقال بعضهم هو ضعف الصّوت بالحركة من غير سكون، فتكون حالة متوسطة بين الحركة والسكون وتكون في الحركات كلها في المرفوع منونا كان أو غير منوّن وهو كجزء من الضمّة وفي المنصوب غير المنوّن، وفي المفتوح وفي المجرور بالكسرة وبالفتحة وفي المكسور وهو كجزء من الكسرة "(١).

* ويعرِّف الإشمام بأنّه "الإشارة إلى الحركة دون صوت فهو لا يدرك إلاّ بالرؤية، وليس للسمع فيه حظ ... "(٢).

ب- عند القراء:

إن ظاهرة الرّوم والإشمام عند القراء لا تختلف كثيرا في حدودها وأبعادها عمّا قاله النحاة إلاّ في بعض الحركات التي تُؤدَّى بها هذه الظاهرة الصوتية، وسنوضح ذلك عند عرض المفاهيم والأغراض.

* يعرِّف ابن الجزري الرّوم فيقول: " وأما الروم فهو عند القراء عبارة عن النطق ببعض الحركة وقال بعضهم هو تضعيف الصوت بالحركة حتى يذهب معظمها وكلا القولين واحد ".

وفي الإشمام يقول " الإشارة إلى الحركة من غير تصويت، وقال بعضهم: أن تجعل شفتيك على صورتها إذا لفظت بالضّمة، وكلاهما واحد، ولا تكون الإشارة إلاّ بعد سكون الحرف "(٣).

* وعند الداني الرّوم هو "تضعيفك الصوت بالحركة حتى يذهب بذلك معظم

(١) السيوطي: همع الهوامع، تح، عبد العال سالم مكرم - ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، عالم الكتب القاهرة، ج٦، ص: ٢٠٧.

(٢) المصدر السابق، ج٦، ص: ٢٠٨.

(٣) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تح، علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج٢، ص: ١٢١.

صوتها فتسمع لها صوتًا خفيا يدركه الأعمى بحاسة سمعه، وأمّا حقيقة الإشمام فهو ضمّك شفتيك بعد سكون الحرف أصلاً "(١).

* يذكر الشاطبي في منظومته تعريفًا للرّوم والإشمام، تناوله الفاسي بالشرح والإفهام، فيقول:

ورومُك إسماعُ المُحرَّك واقفًا * بصوتٍ خَفِيٍّ كُلُّ دَانٍ تنوَّلاَ.

يقول الشارح "أخبر أن الروم أن تسمع الحرف المحرك في حال وقفك عليه بصوت خفي ... "

والاشمام إطباق الشِّفاه بُعَيْد ما * يُسَكَّنُ لا صوتٌ هناك فيَصْحَلاَ.

"أخبر أن الإشمام أن يطبق الشفتان وتضم بعد تسكين الحرف المحرك ... ثم أخبر أنّه لا صوت معه"(٢).

بعد أن عرضنا أقوال النحاة والقراء في تعريف الظاهرة، نقول إن الفريقين متفقان في مفهوم هذه الظاهرة الصوتية وإن اختلفت الألفاظ، فالرّوم هو الإتيان أو الإشارة بالحركة ضعيفة أو تضعيفك الصوت بالحركة أو إخفاء الصوت وكُلُّها ذات مدلول واحد، وهو وجود صوت حتى يكاد الحرف يكون متحركا، ولكن هذا الصوت فيه إخفاء وضعف.

أما الإشمام فهو الإشارة إلى الحركة بالشفتين دون صوت، فأنت تُشِمُّ الحرف بعض الحركة من غير تصويت، فالرّوم الإشارة إلى الحركة بصوت ضعيف، أمّا الإشمام فهو الإشارة إلى الحركة دون صوت، فالأول للعين وهذا للأذن أي أن الأعمى يسمع الرّوم إن كان من القارئ دانيا، ولا يرى الإشمام لأنّه إشارة بالشفتين

(١) الداني، التيسير في القراءات السبع، تح، أوتو برتزل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص: ٥٤.

(٢) شرح الفاسي على الشاطبية المسمّى باللآلئ الفريدة في شرح القصيدة: الفاسي، قدم له: عبد الله ربيع محمود حسن، حققه وعلّق عليه: عبد الرّزاق بن علي بن إبراهيم – ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، الرياض، ج١، ص: ٤٩٣.

فهو للمبْصِر فقط، فالأوّل دليل قويّ على أصل الحركة لأنّها كما يقول ابن جني "... هي كالإهابة بالساكن نحو الحركة "(١)، والآخر دليل ضعيف على أصل الحركة.

إن الإشارة في عمومها دلالة على الكلام، سواء أكانت بالعين أم باليد فهي تعبير صامت يحمل دلالات قد تكون أبلغ من التعبير بالحروف والكلمات وأتم، وكذلك الإشارة إلى الحركة في هذه الظاهرة الصوتية دلالة قاطعة على أصل الحركة في الوصل سواء أكانت ضمّة أم فتحة أم كسرة، وقد خصَّ الإشمام بالضمِّ فقط، أمَّا الرَّوم فهو بالكسرة والضمّة أخصّ، وزاد النحاة الفتح، وأمَّا على قول القرّاء فلا يدخل على حركة الفتح، وسنعْرض الأدلّة على تخصيص كل ظاهرة بحركات تناسبها.

يقول أبو حيان حين يتحدَّث عن الرّوم "ويكون في المحرّك مطلقا، في المرفوع منوَّنًا كان أو غير منوَّن، وفي المنصوب غير منوَّن، وفي المفتوح، وفي المنصوب بالكسرة، وفي المجرور بالكسرة والفتحة وفي المكسور، ونحتاج في المفتوح والمنصوب إلى رياضة لخفَّة الفتحة وتناول اللسان لها بسرعة، ومذهب الجمهور جوازه في الفتحة "(٢).

ويقول ابن الجزري: " ... فعلى قول القراء يدخل على حركة الفتح لأنّ الفتحة خفيفة فإذا خرج بعضها خرج سائرها لأنّها لا تقبل التبعيض كما يقبله الكسر والضم، لما فيهما من الثقل ..."(٣).

(١) ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، لبنان، ج٢، ص: ١٤٥.

(٢) الارتشاف، ج٢، ص: ٨٠٨.

(٣) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج٢، ص: ١٢٦.

يرى ابن الجزري أن النحاة أجازوا الرّوم في المفتوح لأنّهم خلطوا الرّوم والإخفاء أو الاختلاس فيقول « ... لأنّ الرّوم عندهم إخفاء الحركة فهو بمعنى الاختلاس وذلك لا تمنع في الحركات الثلاث ... » ابن الجزري، ج٢، ص: ١٢٦. =

فعلى الرغم من خفةّ الفتحة وسرعة تناول اللسان لها، إلاّ أن النحويين أجازوا الرّوم في المفتوح والمنصوب لذلك على القارئ أن يمتلك دُربة ومرانة ليؤدِّيَ النطق بها دون أن يظهِرها كلّها، أمّا جماعة القرّاء فلم يجيزوا هذا وردُّوه لأنّ الفتحة لا تقبل التبعيض، فإذا خرج بعضها خرج سائرها، وذلك لأنّها حركة متسعة كما أثبت ذلك علم الأصوات الحديث، إذ يقول عبد القادر عبد الجليل في وصف هذه الحركة وصفة مخرجها هي "حركة متسعة وصائت وسطي قصير، يكون اللسان معها مستويا في قاع الفم مع ارتفاع خفيف في وسطه، حيث يبقى الفم مفتوحًا بشكل متسع وحجرات الرنين فيه كبيرة"(١).

أمّا الكسرة والضمّة فهما حركتان ضيقتان، لذلك حين ننطق بهما في الرّوم نستطيع التحكم في مخرجهما، ويجوز فيهما التبعيض أي النطق بجزء من الكسرة أو جزء من الضمة، ويتضح هذا حين تكون الظاهرة تطبيقية مباشرة في نصٍّ من النصوص اللغوية.

بينما اختصَّ الإشمام بالضم دون الفتح والكسر، واتفق في ذلك النحاة والقراء إلاّ ما نقل عن الكسائي أنّه يُجوِّز الإشمام في المخفوض.

وقد علَّل النحاة هذا الاختصاص في عدّة مواضع، خاصة الكتب التي تُعنيَ

= فهذه المصطلحات متقاربة في معناها فهي تشترك في التبعيض والإخفاء أي ذهاب بعض الحركة وبقاء بعضها الآخر إلاّ أن الرّوم والاختلاس يفترقان في أمور هي الآتية:

الاختلاس ← يذهب ثلث الحركة ويبقى ثلثاها ٢/٣
الاختلاس ← يكون في الوصل فقط
الاختلاس ← يتناول الحركات الثلاث

الرّوم ← يكون في الوقف فقط
الرّوم ← المثبت من الحركة أقل من المحذوف. أي يبقى ثلث الحركة فقط ١/٣.
الرّوم ← عند القرّاء يكون في الضم والكسر فقط دون الفتح.

(١) عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، دار صفاء، عمان، الأردن، ص: ٢٠٩.

بالمباحث الصوتية الصرفية، مثلما نجده في كتاب سيبويه " ... فأمّا الإشمام فليس إليه سبيل وإنما كان ذا في الرفع لأنّ الضمّة من الواو فأنت تقدر أن تضع لسانك في أيٍّ موضع من الحروف شئتَ ثم تضمّ شفتيك لأن ضمّك شفتيك كتحريكك بعض جسدك وإشمامك في الرفع للرؤية وليس بصوت للأذن ... "(١).

وجاء في شرح الشافية " ... لم يجوزه أحد من النحاة إلاّ في المرفوع والمضموم لأنّ آلة الضمّة الشفة، وقصدك بالإشمام تصوير مخرج الحركة للناظر بالصورة التي يتصور ذلك المخرج بها عند النطق بتلك الحركة ليستدلّ بذلك على أن تلك الحركة هي الساقطة دون غيرها والشفتان بارزتان لعينه فيدرك نظره ضمهما، وأمّا الكسرة فهي جزء الياء التي مخرجها وسْط اللسان والفتحة جزء الألف التي مخرجها الحلق وهما محجوبان بالشفتين والسّنّ، فلا يمكن المخاطب إدراك تهيئة المخرجين للحركتين"(٢).

ويقول السيوطي في ذلك " ... ذكر النحويون أن الإشمام مختصّ بالضمّة، سواء كانت إعراباً أم بناءً قالوا: ولا يكون في المنصوب والمجرور، لأنّ الفتحة من الحلق، والكسرة من وسط الفم، ولا يمكن الإشارة لموضعهما، فالإشمام في النصب والجر، لأنّه لا آلة له ... "(٣).

إن هذا التحليل الصوتي للظاهرة يؤكّد سَبْق النحاة القدماء في علم الأصوات، فحين يؤكّد لنا سيبويه أن اللسان في الإشمام يُوضَعُ عند الحرف الذي شئت، ثم تضم شفتيك لأنّها كتحريك بعض الجسد، ولأن الإشمام للعين دون الأذن، فهذه الدقة في وصف الصوت والحركة، وتصويرك الشفة دلالة قاطعة على أصل الحركة وهي الضم.

(١) سيبويه، الكتاب (بشرح السيرافي)، ط١، ١٣١٧هـ، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر، ج٢، ص: ٢٨٣.

(٢) شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الاستراباذي، تح: محمد نور الحسن وآخرون، د.ط، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج٢، ص: ٢٧٦.

(٣) السيوطي، همع الهوامع، ج٦، ص: ٢٠٩.

وإذن فالإشمام لا يختصّ بغير الضم، ذلك لأنّ الضمّة جزء من الواو، والواو مخرجها الشفة فإذا حاولنا تطبيق هذه الظاهرة الصوتية مع الفتح أو الكسر فلا نجد إلى ذلك سبيلا، إذ الفتحة مخرجها الحلق، والكسرة التي هي جزء الياء مخرجها وسط اللسان، فامتنع الإشمام مع بقية الحركات، واختصّ الضم بها، لمناسبته ذلك المخرج فهو آلته دون غيره.

ثانياً: علاماتها

لقد وضع النحويون علامات للرّوم والإشمام كي يستدلَّ بها القارئ، فيفرِّق بين الظاهرتين عند الوقف فنجد سيبويه في الكتاب يوضِّح كلّ ذلك فيقول " ... ولهذا علامات فالإشمام نقطة ... ولِرَوم الحركة خطٌّ بين يدي الحرف ... "(١).

ثم يمثِّل لذلك فيقول " ... فالإشمام قولك هذا خالدْ فَرَجْ وهو يجْعَلْ ... وأمَّا الذين رامُوا الحركة فهم الذين قالوا عُمَرَ وهذا أحْمَدْ كأنّه يريد رفع لسانه ..."(٢).

فعلامة الإشمام نقطة وعلامة الروم خطّ، لتفاوتهما في بيان الحركة ولأن الإشمام أقلّ من الرّوم خُصَّ بالنقطة التي هي أقلّ من الخطّ في الرّوم، وفي هذا يقول السيرافي شارح الكتاب:

" ... وأمّا النقطة للإشمام فلأن الإشمام أضْعف من الروم فجعل للإشمام نقطة، وللروم خطا لأنّ النقطة أنقص من الخط "(٣).

ثالثاً: الأغراض الصوتية والصرفية للظاهرة.

يُعدُّ الرّوم والإشمام ظاهرة لغوية تتعلّق بباب واسع في اللغة العربية هو باب الوقف على أواخر الكلم، وهذا الوقف يختص بالسكون، أمَّا الفتحة والضمّة والكسرة فلها أربع درجات أعْلاَهاَ الكمال ثم الاختلاس ثم يأتي الإخفاء، وفي الدرجة الرابعة الرَّوم بدليل أقوى على الحركة ويندرج تحته الإشمام بدليل ضعيف.

(١) سيبويه، الكتاب(بشرح السيرافي)، ج٢، ص: ٢٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص: ٢٨٢.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص: ٢٨٢.

ولهذه الظاهرة أغراض صوتية حاولت جمع بعضها تتبعًا وتقصيًا:

* إن الغرض الرئيس والأساس من هذه الظاهرة هو بيان الحركة كيف هي في الوصل سواء أكانت حركة إعراب أم بناء، فالإشمام دليل الضم، والرّوم يخصُّ بقية الحركات يقول سيبويه "فأمّا الذين أشمُّوا فأرادوا أن يفرّقوا بين ما يلزمه التحريك في الوصل وبين ما يلزمه الإسكان على كل حال ... وأمَّا الذين راموا الحركة فإنّهم دعاهم إلى ذلك الحِرص على أن يخرجوها من حال ما لزمه إسكان على كل حال وأنْ يعلموا أن حالها عندهم ليس كحال ما سكن على كلّ حال وذلك أراد الذين أشمُّوا إلاّ أنَّ هؤلاء أشدّ توكيداً "(١).

وبذلك سيجمع القارئ بين غرضين وظاهرتين هُمَا الوقف والرّوم أو الإشمام، فيقف على آخر الكلمة بالسكون وهذا الأصل، ثم يأتي بالرّوم لبيان الحركة في حال الوصل بصويت خفي أو بالإشمام حين يشير إلى حركة الضم بالشفتين وهذا غاية في البراعة والإتقان وذلك أن يأتي القارئ بكلا الوجهين مُراعيًا في ذلك أصل الحركة ومخرجها وطريقة الأداء الصحيحة.

* ثمّ إنّ النحويين أدرجوا باب الإشمام والرّوم ضمن مباحثهم الصوتية والصرفية، وكذلك في كتب إعراب القرآن، فالظاهرة متعلّقة بالأوزان الصرفية وردُّها إلى أصلها بقراءة الإشمام مثلما نجده عند الزجاج وابن الحاجب.

فيأتي الإشمام في أوّل الفعل مثل (قيل، غيض، سِيء ...)، يقول الزجاج "قيل، (سِيق) (حِيل)، جاء في هذه الأوائل إشمام الضم، ليعلم أن أصله كله "فُعِل" "(٢).

ثم أتَى بأدلّةٍ على ذلك منها قوله " ... من الحجة في ذلك أنهم قد قالوا: أنتِ تغزين، فألزموا الزاي إشمام الضمة، و "زين" من "تغزين" بمنزلة "قيل" فكما ألزم

(١) سيبويه، الكتاب، ج٢، ص: ٢٨٢.

(٢) الزجاج، إعراب القرآن، تح، إبراهيم الأبياري، ط ٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص: ٢٤٦.

الإشمام هنا كذلك يلزم ذلك في قيل ... "(١).

فنلحظ أن هذا الإشمام في أوّل الفعل جاء لغرض ردِّ الوزن إلى أصله، وهو "فُعِل" أي لمعرفة أن الفعل مبني للمجهول وليس للمعلوم.

ويقول ابن الحاجب في تعريف هذا الإشمام خاصّة إنّه " ... فصيح وإن كان قليلاً وحقيقة هذا الإشمام أن تنحوَ بكسرة فاء الفعل نحو الضمة فتميل الياء الساكنة بعدها نحو الواو قليلاً إذ هي تابعة لحركة ما قبلها ... "(٢).

إذًا فهذا نوع آخر من أنواع الإشمام تعارف عليه النحاة والقراء وهو أن تنحوَ بكسرة الفاء نحو الضمّة، أي أن تُشِمَّ الكسرة قليلا من الضم للدّلالة على أصل الفعل ووزنه.

جاء في شرح الكافية موضحًا الغرض الدّلالي من هذا الإشمام "والغرض بالإشمام الإيذان بأن الأصل الضم في أوائل هذه الحروف، وإنما نبهوا على الضم الأصلي ههنا ... لأنهم قصدوا بهذا الإشمام التنبيه على ذلك الوزن المستبعد في الأسماء لتحصيل الغرض المذكور قبل ... "(٣).

* ذكر ابن جني غرضًا آخر عند تأدية الرّوم يقول " ... لكن روم الحركة يكاد الحرف يكون به متحركا ألا تراك تفصل به بين المذكر والمؤنث في قولك في الوقف: أنتَ وأنتِ، فلولا أن هناك صوتًا لما وجدت فصلا "(٤). فالرّوم هنا قد فصل للسّامع بين الفتح والكسر أي بين المذكر والمؤنث عند إظهار ذلك الصويت الخفي وإلاّ كانت صورة الخط كذاك الصوت الذي يرومه القارئ.

(١) المصدر نفسه، ص: ٢٤٧.

(٢) الكافية في النحو، ابن الحاجب، شرحه، رضي الدين الاستراباذي، د.ط، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج٢، ص: ٢٧٠، ٢٧١.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص: ٢٧١.

(٤) ابن جني، الخصائص، ج٢، ص: ٣٢٨.

رابعاً: شواهدُها

أمَّا شواهد هذه الظاهرة الصوتية، فقد ذكر أصحاب القراءة والتجويد في مصنّفاتهم كُلَّ مواضع الرّوم، والإشمام في القرآن الكريم سواء أكانت إعرابًا، أم بناءً نذكر من بينها هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال عز وجل: ﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة: ٣٥].

وقال أيضا: ﴿ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهذه بعض مواضع الإشمام، الأولى تخصُّ الحروف المضمومة، والأخيرة للمرفوعة. وأمّا شواهد الرّوم فإليك كذلك بعضها، الأوّل يخُصُّ المجرور والآخر للمكسور: قال تعالى: ﴿ فِيهِ هُدًى ﴾ [البقرة: ٠٢].

وقال أيضًا: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا ﴾ [آل عمران: ٨٥].

بعد أن عرضْنَا شواهدَ من القرآن الكريم، سَنَنْتَقِي شاهدًا شعريًا ذُكِرَ في كتب اللغة والنحو بالتحليل والشرح والتوجيه، وقَرَأَتِ العرب حرفًا منه بالإشمام وهو قول الرّاجز:

متى أنام لا يؤرِّقْني الكرِي * ليلاً ولا أسمعُ أجراسَ المَطِي.

يقول سيبويه معلِّقًا على البيت "كأنَّه قال: إن يكن منِّي نومٌ في غير هذه الحال لا يؤرِّقْني الكريُّ كأنّه لم يَعُدَّ نومه في هذه الحال نومًا. وقد سمعنا من العرب مَنْ يُشِمُّه الرَّفْع كأنّه يقول: متى أنام غير مُؤَرَّق "(١).

فالعرب قرأت بالإشمام في القاف من الفعل "يؤرِّقني" فأشمّت السكون شيئا من الضم، كي تدُلّ بهذا على أصل حركة القاف وهي الرفع، مثلما قال سيبويه،

(١) سيبويه، الكتاب (بشرح السيرافي)، ج١، ص: ٤٥٠.

أصل الكلام متى أنام غير مؤرّق، وكأنَّ الفعل في غير الضرورة الشعرية مرفوع، وليس مبنيًا على السكون، وهذه الحركة غير معتدٍّ بها لأنها دون روم الحركة، ولو اعتدَدْنا بها لا نكسر وزن البيت لأنّه من الرَّجز كما يأتي:

مَتَى أنامُ لا يُؤَرِّقْنيْ الكَرِي

متَى أنَا / مُ لا يُؤَرْ/ رِقْنِلْكَرِي

o / / o / / o / / o / / o / / o / / o / / o

متفعلن متفعلن مستفعلن

فلو اعتدَدْنا بحركة القاف (رِقُنِلْكرِى) لكان الوزن ← (مُتَفَاعِلن) وهذه تفعيلة الكامل وفي هذا يقول ابن جني " ولو اعتددت بِمَا في القاف من الإشمام حركة لصار الجزء إلى "مُتَفَاعلن" وكان يكون كسْرًا لأنّ الرجز لا يجوز فيه "مُتَفاعلن" وإنّما يأتي في الكامل "[1] فالإشمام هنا في تقدير السكون لضعف الحركة.

إننا نلاحظ أن اللغة العربية كلّ متكامل لا يتجزّأ، فالنحاة يستدلّون على قضايا صوتية وصرفية بعلم العروض، ولعلّ الدارس يظنّ أنّ هذا العلم مُبْعَد عن اللّغة، بل تقطيع ومعرفة البحر يدلُّنا على الرأي الصّواب والسليم، فلولا معرفة الكامل من الرَّجز وما يجوز فيه من علل وزحافات لَمَا عَلِمْنَا موضع الإشمام وجوازه في البيت وضعف حركته من قوّتها.

وإن الإشمام ليس مختصًّا بالنص القرآني فحسب بل هو ظاهرة لغوية حاضرة في جميع النصوص النثرية والشعرية، تترتَّبُ عنه أحكامٌ صوتية، ونحوية، وصرفية غايتها توجيه النصوص وضبط قراءتها وتتبُّع الوجُوه المستحسنة فيها.

(١) ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح، حسن هنداوي، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، دار القلم، دمشق، ج١، ص: ٥٨.

لقد حَازَ القُدماء من نحاة وقرّاء السّبق في تشخيص هذه الظاهرة اللغوية الصوتية فتناولوها بالتعريف والاستقصاء والتحليل، وتوضيح شواهدها والحركات المختصّة بها، وأوجه الخلاف فيها ممّا اسْتدعى وضع أدِلّة، وحجج قاطعة حول الرأي المعتمد عليه عند كلّ فَريق، وقد تتّبعنا تلك الدقّة العلمية الموضوعية في وصف المخرج والصفة والحركة، وبيان أثرها في توجيه الظاهرة سواء أكانت رومًا أم إشمامًا، وما كان للمتأخرين سوى الحذوِ خلف خطاهم ومُرَاعَاةِ القوانين والأسس التي وضعوها وحدَّدوا معالمها إلاّ أننا نجد مَنْ خَرجَ عن رسومهم، وتعَدَّى أسوارهم مثل إبراهيم أنيس حين يتحدّث عن هذه الظاهرة فيقول:

" ... ويظهر أن الوقف بهاتين الطريقتين لا يعدو أن يكون وسيلة تعليمية، الغرض منها هدي للناشئين إلى معرفة آخر الكلمة رغم الوقف عليها فهو وقف بما يشبه الوصل ... "(١).

ثم يستمرُّ في عرض آرائه وحججه وبعض الشواهد حول الطريقتين، ولكنه ما أصاب في ذلك لأنّ الذي يتتبع آراءه في كتابه "من أسرار اللغة" سيجد أنّه قد ثار على جُلِّ ما قاله القدماء سواء في الروم والإشمام أو العامل والمعمول ...

إنها ظاهرة صوتية سبق إليها الأوائل فتوصّلوا إلى إظهار الحركة عند الوقف فيكون بإتيان الحركة ضعيفة وهو الرّوم ويكون إشارة بالشفتين إلى الحركة المحذوفة والأوّل أقوى.

خامساً: ظاهرة الرّوم والإشمام عند المحدثين:

تحدّث علماء اللّغة المحدثون عن ظاهرة الوقف في اللغة العربية ضمن مباحثهم الصوتية فبيّنوا الدلالات الوظيفية التي يُؤدّيها الوقف بأشكاله المعروفة، وعدُّوه رافداً من روافد النظام اللّغوي المحْكَم، يقول الحسناوي: "والوقف محطة راحة

(١) إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ط٧، مكتبة الأنجلو، ص: ٢٢٠.

للفكر واللسان بعد عناء. إذا شاء القارئ وقف وإن شاء استأنف، والراحة التي تعقب العناء غير العناء المستمر والراحة المطلقة، انظر إلى تعاقب الليل والنهار وتعاقب البر والبحر، وتعاقب الوادي والجبل ثم تعاقب الحركة والسكون في الكلام، وهكذا يصبح الوقف رافداً من روافد النظام"(١).

ولكنّهم لم يفصّلوا في أشكاله التي يُؤَدَّى بِها، إذ نجد المادة الصوتية في الرّوم والإشمام ضنينة لا تكاد تفي بالغرض المبْتَغى من الدراسة، ولكنّني حاولت تتبُّع الوظائف الصوتية للظاهرة بالتقصّي والتحليل، خاصّة ما يتعلق بالإشمام، لأنَّ الروم لم يكن حاضراً في الدراسات الصوتية الحديثة، بل اختصَّ به أهل القراءة والتجويد.

الإشمام من الظواهر التطريزية: (Prosodic Features)

إن الإشمام عند اللغويين المحدثين هو مبحث صوتي بَحْتٌ، يتعلق بتلك التّنويعات اللغوية التي يحملها أصغر جزء صوتي وهو الفونيم ((Phoneme)(٢)، وذلك أن هذا الفونيم يتفرع إلى قسمين من الفونيمات هي الفونيمات التركيبية (Segmental Phonemes)(٣) والفونيمات فوق التركيبية (Suprasegmental Phonemes)، والإشمام هو نوع من أنواع الفونيمات فوق التركيبية أو غير المقطعية مثل التنغيم والنبر، فهو لا يكون جزءاً من تركيب الكلمة وإنما يلاحظ حين تضم كلمة إلى أخرى، ويكون في المنطوق دون المكتوب، لذلك تُعَدُّ هذه الفونيمات ثانوية أو

(١) محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن، ط٢، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، دار عمار، عمان، الأردن، ص: ١٩٤.

(٢) اختلفت تعريفات الفونيم عند المحدثين باختلاف المدارس اللغوية التي تبنوا أفكارها، والتعريف الذي تبناه "جونز" للفونيم هو «أسرة من الأصوات في لغة معينة متشابهة الخصائص ومستعملة بطريقة لا تسمح لأحد أعضائها أن يقع في كلمة في نفس السياق الصوتي الذي يقع فيه الآخر» أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ١٤١١هـ-١٩٩١م، عالم الكتب، القاهرة، ص: ١٧٧

(٣) الفونيمات التركيبية أو الأساسية « التي تكون جزءاً من أبسط صيغة ذات معنى منعزلة عن السياق، ويؤدّي تغيرها إلى تغير في دلالة الصيغة ومعناها» حسام البهنساوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث – ط١، ٢٠٠٥م، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ص: ١٦٥.

تطريزية، والإشمام ظاهرة صوتية وتنوُّعٌ من تنوعات الفونيم مثل الثوب المطرَّز، تلحق به السّمات التّطريزية فتضيف إليه لمساتٍ جماليةً تزيد من جودته وأناقته وتجعله أكثر قَبُولاً واستحسانًا.

إذن فالإشمام يُعَدُّ من بين تنوُّعات الفونيم أو صورة من صور الحركات الأصلية، وليس فونيمًا مستقلاً بذاته، يقول كمال بشر معلِّقًا على قول ابن جني في كمّية الحركات "... ومهما يكن الأمر فقد أصاب ابن جني في نقطة مهمّة لم يدركها الكثيرون من قبله ومن بعده وهي أن الحركات تخضع للتغير في نطقها من حال إلى حال وفقا للسياق الصوتي الذي تقع فيه، ولكنا مع ذلك لسنا معه في احتسابه صور هذا التغير حركات مستقلة، إنها صور أو أمثلة (Variantes أو Allophones) وفقا للسياق، وليست وحدات أو فونيمات مستقلة Unites Or Phonemes لها قيم دلالية"(١).

فالإشمام الذي هو ضمة مشمّة كسرًا أو كسرة مشمّة ضمًّا ليست حركة مستقلة بذاتها أو فونيما رئيسًا في التركيب تنتُج منه دلالات أصلية توجِّه السياق اللغوي، وإنّما هو تنوُّع لحركة الضم والكسر، فالحركة خاضعة للتغير الصوتي في النطق، وهي لا تدخل في جوهر التركيب اللغوي وإنما لها تأثيرات موجِّهه للبُنى الوظيفية.

أمّا فيرث "FIRTH" رائد المدرسة الإنجليزية فإنَّه يَرى أنَّ كُلَّ الفونيمات تحمل دلالات صوتية سياقية فَلاَ وُجود للفونيم الثانوي، أو فوق التركيبي، يقول كمال بشر مُوَضِّحًا رأي فيرث "FIRTH" "... ويرى أن الفونيمات التي سماها الآخرون فونيمات ثانوية لها أهمية بالغة في الكلام المتصل المنطوق إنها تعبر عن حقيقته وما يلفّه من ظواهر تنبئ عن خواصه التي تُحدّد نوعياته وكيفيات أدائه بطريق علمي دقيق ..."(٢).

(١) كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص: ٤٥٣.، انظر النص في الخصائص، ابن جني، ج٣، ص: ١٢٠-١٢١.

(٢) المرجع نفسه، ص: ٤٩٧.

نتائج البحث:

* إن الرّوم والإشمام هو مبحث مشترك بين علم القراءة وعلم النحو، فالمفاهيم والمصطلحات واحدة وإن اختلفت الألفاظ الدَّالة عليه، ولكن التواصل المعرفي والفكري واللغوي، كان غائبًا بين القراء والنحاة، على الرغم من شمولية الظاهرة أي أنها لا تختصُّ بالنص القرآني فحسب، بل تتجاوزه إلى بقية النصوص اللغوية سواء أكانت شعرًا، أم نثرًا، فكلُّ فريق ينفرد بآرائه المتأثرة بطبيعة النص، ولو كان نوعٌ من التواصل والتكامل بينهما لأدّى ذلك إلى إثراء الدرس اللغوي الصوتي خدمةً للنصِّ القرآني، فيَنْمو بذلك الدرس الصوتي والصرفي والتركيبي، وهذا يَخْدِمُ بشكل أخصّ الدَّرس الدلالي الذي هو الغاية في دراسة اللغة العربية.

* إن هذه الظاهرة اللغوية الصوتية تشكّلُ تصوُّراً واضحًا عن الانسجام الصوتي بين الفونيمات وتنوُّعاتها اللغوية، وهذا نتيجة لِتَجاوُرِ مجموعة من الصوائت المشتركة في مجموعة من الخصائص الكلامية.

* إن الإشمام عند المحدثين هو ظاهرة تطريزية تُضْفِي على السياق الصوتي سِمَاتٍ جمالية، تُعَدُّ أُلُوفونات (ALLOPHONES) للفونيم، وهي تنوّعات أو تغيُّرات مثلها كمثل المحسنات اللفظية التي تزيد التراكيب اللغوية حُسْنًا وأناقة، فالظواهر التطريزية تُكْسِبُ السياق الصوتي دقةً ومرونة، وترسخ الأثر الدلالي في النفس والبديع يزيد السياق التركيبي انسجامًا وتجانُسا.

* إن الرَّوم والإشمام نوعٌ من أنواع المحسنات الصوتية تُضَمُّ إلى النبر والتنغيم والمفْصَل (السكتة والاستراحة ...)، وهذا البحث يفتح آفاقًا جديدة للتوجُّهِ نحو حقل جديد في الدراسات الحديثة هو المحسنات الصوتية وأثرها في التركيب الدلالي والسياقي.

المصادر والمراجع

١- إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ط٧، مكتبة الأنجلو.

٢- أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ١٤١١هـ-١٩٩١م، عالم الكتب، القاهرة.

٣- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تح، علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٤- ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، لبنان.

- سر صناعة الإعراب، تح، حسن هنداوي، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، دار القلم، دمشق.

٥- الجوهري: الصحاح، مادة (روم)، تحقيق: أحمد عبد الغفار عطّار، ط٣، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، دار العلم للملايين، بيروت.

٦- ابن الحاجب، الكافية في النحو، شرحه، رضي الدين الاستراباذي، د.ط، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٧- حسام البهنساوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث - ط١ ٢٠٠٥م، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر.

٨- أبو حيان: ارتشاف الضرب من لسان العرب، تح، مصطفى أحمد النماس - ط١ - ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، مصر.

٩- الداني، التيسير في القراءات السبع، تح، أوتو برتزل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٠- رضي الدين الاستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب، تح: محمد نور الحسن وآخرون، د.ط، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١١- الزجاج، إعراب القرآن، تح، إبراهيم الأبياري، ط ٠٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

١٢- الفاسي على الشاطبية المسمّى باللآلئ الفريدة في شرح القصيدة: الفاسي، قدم له: عبد الله ربيع محمود حسن، حققه وعلّق عليه: عبد الرّزاق بن علي ابن إبراهيم - ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، الرياض.

١٣- عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، دار صفاء، عمان، الأردن.

١٤- سيبويه، الكتاب (بشرح السيرافي)، ط١، ١٣١٧هـ، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر.

١٥- السيوطي: همع الهوامع، تح، عبد العال سالم مكرم -١٤٢١هـ-٢٠٠١م، عالم الكتب، القاهرة.

١٦- كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٦م.

١٧- محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن - ط٢ - ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، دار عمار، عمان، الأردن.

١٨- ابن منظور: لسان العرب، تح، عبد الله علي الكبير، محمد حسب الله وآخرون، (مادة شمم) دار المعارف.

١٩- ابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.